إشكالية البحث في التاريخ الاقتصادي الإسلامي
التأزم والاستقرار الاقتصادي في الغرب الإسلامي أنموذجاً

أ.م.د. مراد تجنانت
كلية العلوم الإنسانية/ جامعة علي لونيسي– البليدة ٢

The Problem of Search in the Islamic Economic History
Economic Recession and Stability in the Islamic West as an Example

Asst. Prof. Murad Tijnanet
College of Human Sciences / University of Ali Luwineesi – Al-Bulaida 2
mourad.tadj@gmail.com

Abstract

The different Muslim sources contain rich information relating to économic facts and events. One can mention particularly the annals, the books of hisba and the books of fatwa gathering the legal opinions issued by the Muslim jurisprudence specialists

The problem that arises in historical scientific research is how to look at economic issues and project the terms of economic terminology on the traditional expressions of the middle Ages or at least bring them closer together. The crisis and economic prosperity will be the subject of this study.

The term “crisis” does not appear in Muslim sources. Arab Lexical dictionaries generally indicated this by the deprivation or suffering that affects groups and individuals. but in A rare fact It is found in a hadith attributed to the prophet. Mecca then suffered the detrimental effects of extreme scarcity.

In order to clearly indicate a situation of economic crisis, the word "expensive" was preferred. The sources also implicitly mentioned it as symptoms such as the decline in production, caused by situations such as wars, droughts, floods, locust invasions, and their consequences, such as famines, forced migration of populations and the high rate of mortality.

Economic stability was often signified by the ease and the prosperity, a fertile season followed by good agricultural production, lower prices, peace, and political stability.

Throughout the study of the terms “crisis” and “economic stability”, we can conclude that the projection of economic terminology in the first place on historical texts and jurisprudence is possible and this will allow us to carry out an exhaustive research in this field.

Keywords: economic crisis, pest, prices, pandemics, locusts, locusts, war, fertile, prosperity, hardship, impotence, expensive people, flood, drought, famine, shop, epidemic.

الكلمات المفتاحية: الأزمة الاقتصادية، الآفة، الأسعار، الجائحة، الجَدْبُ، الجراد، الحرب، الخصب، الرخاء، الشِدَة، العاهة، الغلاء، فناء الناس، الفيضان، القحط، المجاعة، المَحْل، الوباء.

جمعت مختلف المصادر الإسلامية، أهمها كتب الحوليات والتراجم وكتب النوازل والمؤلفات الجغرافية والرحلة كمًا ضخما من المعلومات التي تتناول الحياة الاقتصادية للمجتمعات والأفراد. فعرضت لنا ما كان متوفرا من مقومات طبيعية وبشرية، ونشاطات اقتصادية في الزراعة والحرف والتجارة والخدمات.

تميزت كتب النوازل بما دُوِّن فيها من صور عن العلاقات بين مختلف عناصر الحلقة الاقتصادية، أي الإنتاج والمُنْتِج والتاجر والمستهلك، وقدمته لنا من أجوبة الفقهاء على ما كان يأتيهم من أسئلة عن المشاكل التي كانت تفرزها الممارسات الاقتصادية كأنواع الشراكة والاحتكار والبطالة وتضخم الإنتاج وانهيار الأسعار والغلاء وتقلبات قيمة الصرف. لقد شَكَلَ الاجتهاد والتفكير المتواصل في المسائل الاقتصادية والاجتماعية كمًا معرفيا متراكما كان مقدمةً وقاعدةً لنشأة علم الاقتصاد بمعانيه الاصطلاحية الحديثة.

رغم هذا الرصيد الكبير من المعلومات فإن البحث التاريخي المدقق في القضايا الاقتصادية تعترضه صعوبات، منها إشكالية ضبط المعلومات الواردة في المصادر بما يوافق متطلبات الدراسة الاقتصادية الحديثة، في هذا السياق يرى المؤرخ إبراهيم القادري

بوتشيش أن البحث في التاريخ الاقتصادي الإسلامي عامة والغرب الإسلامي خاصة يعرف أزمة اصطلاحية وفراغا وغموضا، تجعل الباحث يعاني من قلق توظيف المصطلحات الاقتصادية الحديثة في هذا المجال[١].

يَشْعُرُ الباحث حقيقةً بهذا القلق وهو يجتهد لتشخيص واقعٍ اقتصاديٍ محدد، كالبحث مثلا في موضوع الأزمات الاقتصادية. فهل بالإمكان إسقاط هذا المصطلحات الحديثة عل ما ورد في المصادر التقليدية من أخبار دلَّت على حدوث انعطاف مباغت في النشاط الاقتصادي ووقوع حالات اختلال التوازن بين الإنتاج والاستهلاك نتج عنها فقدان الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي؟ وسينطلق العمل للإجابة عن هذا السؤال من البحث الاصطلاحي في معاني الأزمة والاقتصاد في اللغة، ثم تفحص مختلف المصادر للاستشهاد بما جاء فيها من كلمات وعبارات وتلميحات متفرقة تدل على وضعيات التوتر والاستقرار الاقتصادي.

أولا – مفهوم الاقتصاد والأزمة في للغة العرب.

استعمل العرب كلمة الاقتصاد بمعنى القَصْد في الشيء الذي يكون ما بين الإسراف والتقتير، وهو خلافُ الإفراطِ، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف:((مَا عَالَ مُقْتَصِدٌ قَطُ))[٢]، أَي ما افتقر من لا يُسرِفْ في الإنفاقِ ولا يُقَتِّر، أو ما أفتقر من أنفق قصدا ولم يجاوزه إلى الإسراف[٣].

أما كلمة الأزمة أو الأَزْمُ فقد وردت بمعنى الجَدْبُ والمَحْل والسَّنة المُجْدِبة والشِدَّة والقحط[٤]. فالأزمة عندهم ما يأتي نتيجة لظروف طبيعية من نقص في الإنتاج الزراعي وقلة الطعام وعموم المجاعة. ورد لفظ الأزمة في حديث نبويٍ تحدث عن شِدَّةً أصابت أهل مكة قبل البعثة.كان أبو طالب في عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ لعَمِّه العبَّاس، الذي كان من أيسر بني هاشم: ((يَا أَبَا الفَضْلِ إِنَ أَخَاكَ أَبَا طَالِب كَثِيرَ العِيَالِ وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَى مِنْ هَذِهِ الأَزْمَةِ فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ نُخَفِفُ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ آخُذُ مِنْ بَنِيهِ رَجُلاً وَتَأْخُذْ أَنْتَ رَجُلاً فَنَكْفُلُهُمَا عَنْهُ))[٥]. ولفظ الأَزْبَةُ مرادف للأَزْمَة، فيُقال: أَصَابَتْنَا أَزْبَةٌ وآزِبة وأَزْمَةٌ ولَزْبَةٌ، أَي شِدَّة[٦].

جاءت كلمات الجائحة والجُوح والاجْتياح بمعنى الاستئصال لتضاف إلى معاني التأزم. ففي اللغة جاحتهم السنة جُوحًا وجِيَاحةً أي استأصلت أموالهم فتجتاحها حتى لا يبق لهم شيء، وسنة جائحة بمعنى الجدباء، وقوم أَصابتهم جائحة أَي سَنَة شديدة اجتاحت أَموالهم فلم تَدَعْ لهم وَجاحاً بمعنى بقية الشيء من مال أو غيره[٧]. وقريب من الجائحة مصطلح الآفة والعاهة، ومنه عاهَ المالُ أي أَصابته العاهة وهي مصطلحات استعملت كثير في كتب الفقه والنوازل[٨]. وفي حديث النبي ﷺ" أنه نهى عن بيع الثمار حتى تذهب العاهة" أي حتى يذهب عنها ما أصابها من أمراض[٩]. من الألفاظ الواردة في المصادر كلمة الجدب الذي هو نقيض الخِصْبِ، ففي حديث الاسْتِسْقاءِ ((هَلكتْ المواشي وأجدبت الأرض وهلك المال)) أَي قَحِطَتْ وغَلَتِ الأسعار))[١٠].

---

١ - يقترح الأستاذ بوتشيش وضع معجم في التاريخ الاقتصادي لتسهيل العمل على الباحثين.القادري بوتشيش: إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي،ط١، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٢م. ص ٦٠ فما بعدها.

٢ - الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم (٢٦٠ - ٣٦٠ه / ٨٧٣ - ٩٧١ م): المعجم الكبير، مكتبة العلوم والحكم، ط ٢، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي الموصل العراق ١٤٠٤- ١٩٨٣، ج١٢ ص ١٢٣.

٣ - ابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي المصري(٦٣٠ - ٧١١ ه / ١٢٣٢ - ١٣١١ م): لسان العرب، ط ١، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف القاهرة، ١٩٧٩، ج ٣ ص ٣٥٤.

٤ - نفس المصدر، ج ١٢ ص ١٦ والزَّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (١١٤٥ - ١٢٠٥ ه/ ١٧٣٢- ١٧٩٠ م): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين،ط١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب دولة الكويت ١٤٢١ه/٢٠٠٠م. ج٣١ ص٢١٣ و الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر(ت بعد ٦٦٦ه/ ٩٣٠م): مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، ط ٥،المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا لبنان، ١٤٢٠ه / ١٩٩٩م. ص ٦.

٥ - أنظر الحاكم النيسبوي الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه (٣٢١- ٤٠٥ ه/ ٩٣٣ - ١٠١٤ م): المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتاب العلمية بيروت لبنان ١٤١١ه/ ١٩٩٠ م ، ج ٣ ص ٦٦٦.

٦ - الزبيدي، المصدر السابق، ج ٢ ص٢٤.

٧ - ابن منظور، المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٣١.

٨ - نفس المصدر،ج ١٣ ص ٥٢٠.

٩ - جاء في الموطأ: ((أخبرنا مالك أخبرنا أبو الرجال محمد بن عبد الرحمن عن أمه عمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الثمار حتى ينجو من العاهة)) والعاهة الآفة. مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي (٩٣ -١٧٩هـ/٧١٢- ٧٩٥م): موطأ الإمام مالك، تحقيق، تقي الدين الندوي الطبعة: الأولى دار القلم دمشق ١٤١٣ه/ ١٩٩١. م ج٣ ص ١٥٥.

١٠ - جاء في سنن الصغرى للنسائي: عن أَنَسِ بنِ مالِك، قَل: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ الْمَوَاشِي، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمُطِرْنَا مِنَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَهَدَّمَتِ الْبُيُوتُ،

يظهر من خلال هذه التعريفات أن مصطلح الأزمة كان يُقصد به الشِدَّة كمفهوم واسع يشمل كل ما قد يَلْحَقُ الجماعات والأفراد من ضيق وتوترات، سواء ما كان سببه الظروف الطبيعية كالمحل والقحط والفيضان والسيل والرطوبة العالية وغزو الجراد والأمراض التي تصيب النبات والحيوان والإنسان. وما نتج عن فعل الإنسان كانعدام الأمن والحروب وسوء الإدارة الاقتصادية.

ثانيا – الإشارة إلى الأزمات الاقتصادية من خلال ذكر إحدى عناصرها أو بعضها.

أشارت أصحاب المصادر إلى التأزم الاقتصادي بذكر عناصره وهي المظاهر والأسباب والنتائج، لكن عرضها عادة ما يكون دون تصنيف منهجي.

١. التعبير عن حدوث الشدة لاقتصادية بذكر المظاهر.

كان مصطلح الغلاء الذي يعني ارتفاع الأسعار فوق معدلاتها العادية نتيجة قلة العرض، من أوضح المصطلحات دلالة على اختلال الوضع الاقتصادي. الأمثلة في هذا المجال كثيرة، فقد سجل المؤرخ ابن الأثير مثلا حدوث الغلاء بأفريقية الذي دام ثلاث سنوات من ٤٨٢هـ/١٠٨٩م إلى ٤٨٤هـ/١٠٨٩-١٠٩١م[١]، والغلاء في جميع بلاد المغرب، استمر من٥٣٧ الى٥٤٣هـ/ ١١٤٢-١١٤٧م[٢].وذكر ابن عذارى الغلاء في القيروان سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م[٣]، واستفحال الغلاء بالثغر الأعلى الأندلسي بين سنتي ٤٣٥و٤٣٨هـ/١٠٤٣-١٠٤٦م بسبب الحروب[٤]،و الغلاء ببجاية بين سنتي٤٨١و٤٨٣هـ م/١٠٨٨-١٠٩١م[٥]، والغلاء من تونس إلى تلمسان عام ٥١٢هـ/١١١٨م[٦]، والغلاء بأشبيلية ورَنْدَةَ وشريش وسبتة بين سنتي ٥٤٢و٥٤٤هـ/١١٤٧-١١٤٩م[٧]، والغلاء بمراكش والأندلس سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م[٨].

أضاف أصحاب المصادر إلى بعض هذه الأخبار أسعار موادٍ استهلاكيةٍ للتأكيد عل حالة تجاوز الأسعار حالتها المعهودة أو بلوغها حالات أدت إلى حدوث انهيار اقتصادي شامل وتدهور مأساوي في الأوضاع الاجتماعية. كقلة الغذاء وعموم المجاعة وانتشار الأوبئة وارتفاع أعداد الوفيات. في هذا الإطار سجل المؤرخ ابن عذارى الغلاء في إفريقية سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م بلغ فيها سعر الحبَّة الواحدة من الرمَّان درهمين والفروج ثلاثين درهما[٩]. وأرخ عبد الواحد المراكشي للغلاء بإفريقية في جيش الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي عند حصاره المحتلين النورمان بمدينة المهدية سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م، حيث بِيعَتْ في العسكر سبع باقلات بدرهم مُؤمِنِيّ[١٠]. وأورد ابن بشكوال حدوث الغلاء بإشبيلية في عهد المعتمد بن عباد، فبلغ سعر القفيز الواحد[١١] من القمح إحدى عشر مثقالا[١٢]. وذكر ابن صاحب الصلاة معلومات عن تطور وتيرة ارتفاع الأسعار في جيش يوسف بن عبد المؤمن بعد خروجه من وبذة ثم كونقة شمال شرق

وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، وَهَلَكَتِ الْمَوَاشِي، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ، وَالآكام، وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ»، فَانْجَابَتْ عَنِ الْمَدِينَةِ انْجِيَابَ الثَّوْبِ.النسائي أحمد بن علي بن شعيب أبو عبد الرحمن (٢١٥ - ٣٠٣ هـ/ ٨٣٠ - ٩١٥ م): المجتبى من السنن، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط ٢، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب الجمهورية العربية السورية ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م. ج ٣ ص ١٦٥و ابن منظور، ج ١ ص ٢٥٤.

١ - ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ م، ج ٨ ص ٤٦٢.

٢ - نفس المصدر،ج ٩ ص ٣٤٩،٣٥٠ وابن عذارى ابن عذارى محمد (أو أحمد بن محمد)،أبو عبد الله، (ت نحو ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م):البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،الجزء الخامس قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة، الطبعة ١، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ودار الثقافة الدار البيضاء المملكة المغربية. ج ٥ ص١٦.

٣ -ابن عذارى الجزء الأول والثاني والثالث ، تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال، ط ٣، دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٨٣، ج ١ ص ٢٦١.

٤ - نفس المصدر، ج ٣ ص ٢٨١، ٢٨٢.

٥ - نفس المصدر، ج ٥ ص ١٨٠، ١٨١.

٦ - نفس المصدر، ج١ ص٣٠٧.

٧ - نفس المصدر , ج ٥ ص ٣٨،٣٩.

٨- نفس المصدر، ج ٥ ص ١٥٢.

٩- نفس المصدر، ج ١ ص ٢٥٧، ٢٥٨.

١٠ - المراكشي عبد الواحد بن علي التميمي (٥٨١ -٦٤٧ هـ/١١٨٥ - ١٢٥٠م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، محمد زينهم ومحمد عجب، ط١، دار الفرجاني للنشر والتوزيع القاهرة مصر ١٤١٤ه/ ١٩٩٤م. ص ١٦٨، ١٦٩.

١١ - القفيز ١٢ صاعا = ٢٦,١١٢ كلغ، وهبة الزحيلي الفقه الإسلامي وأدلته الشامل للأدلّة الشرعية والآراء المذهبية وأهم النَّظريات الفقهيَّة وتحقيق الأحاديث النبويَّة وتخريجها، ط٢، دار الفكر دمشق سوريَّة ١٤٠٥ه/١٩٨٥م.، ج ١ ص ٧٥.

١٢- ابن بشكوال بن عبد الملك بن مسعود (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م): الصلة (معه كتاب صلة الصلة لابن الزبير مج٣)،تحقيق الشريف أبو العلاء العدوي، ط١، مكتبة الثقافة الدينية،١٤٢٩ه/ ٢٠٠٨، مج ٢ ص ١٨٨، ١٨٩.

الأندلس. ففي مدة ثمانية أيام ارتفعت أسعار القمح والشعير، من درهم لمُدٍ إلى درهمين ثم إلى ثلاثة دراهم ثم إلى أربعة دراهم بسبب حالة الحرب وما نتج عنها من ندرة الغذاء سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م[١]. ومن الأوصاف العامة للتدهور الاقتصادي وصف ابن أبي زرع الغلاء بمدينة فاس نحو سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م بالغلاء المفرط أي الغلاء الذي تجاوز الأسعار التي يمكن تحملها نتيجة انعدام القوت[٢].

إذا كان الغلاء مظهرا للتأزم الاقتصادي فإن انهيار الأسعار هو الآخر مؤشر من مؤشرات الأزمة. من أمثلته الرخاء المفرط في المغرب سنة ٣٨١هـ/٩٩١م، حتى أن المزارعين وقت الحصاد لم يجدوا من يشتري محصلهم لضخامته فتركوا الزرع في الحقول لا يحصدونه[٣].

٢. التعبير عن حدوث الشدة الاقتصادية بذكر أسبابها الطبيعية والبشرية.

ذكرت المصادر الحولية بالخصوص أمثلة كثيرة عن الكوارث الطبيعية التي كانت تُحدِث خسائر مادية وبشرية وآثارا اقتصادية واجتماعية سيئة. كانحباس المطر والجفاف الشديد[٤]. الأمثلة في هذا المجال كثيرة، فسجل ابن الأثير حدوث الجفاف بإفريقية عام ٤٢٥- ٤٣٠هـ/١٠٣٣م مما سبب الغلاء والمجاعة[٥]. وقد عاود الجفاف فيها عامين بعد ذلك من سنة ٤٣٢ إلى٤٣٤هـ/١٠٤٠-١٠٤٢م أفضى إلى الغلاء في البلاد[٦]. وأرَّخ عبد الواحد المراكشي للقحط بالمغرب الأوسط من تيهرت إلى سجلماسة حتى أحدث فناء الناس[٧]. وذكر ابن عذارى تناهي القحط بالأندلس وبلاد العدوة المغربية حتى أيقن الناس بالهلاك عام٤٩٨هـ/ ١١٠٥م[٨]. وأخبر ابن القطان عن حصول القحط والوباء بفاس عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م[٩]، وأورد القاضي ابن عبد الملك في تراجمه خبر تتابع القحط بالأندلس من عام ٥٢٤ إلى ٥٣٢هـ/١١٢٩-١١٣٧م[١٠]. ومن الكوارث الطبيعية كذلك أورد ابن عذارى الفيضانات وعموم الوباء بالأندلس عامي٤٠٠ و٤٠١هـ/ ١٠٠٩-١٠١٠م[١١]. وسجل أحمد بن يحيى الضبي عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م شدَّة البرد والصقيع مع تساقط الثلوج فأحدث ذلك خسائر وانخفاضا في الإنتاج الزراعي[١٢].

سجلت المصادر من مسببات الجوائح أو الكوارث الاقتصادية والاجتماعية اكتساح الجراد للمحاصيل الزراعية، فأرجع ابن الأثير أسباب الغلاء بإفريقية سنة ٤٠٦هـ/١١٠٥م إلى غزو أسراب الجراد، إضافة إلى الحروب[١٣]. ومن أشد موجاته تخريبا للمحاصيل الزراعية ما أخبرنا عنه ابن القطان من انعدام النبات بين سنتي ٥٢٦و٥٣١هـ/١١٣٢-١١٣٧م واستمرار اجتياحه حتى محا الزرع والكلأ بالأندلس[١٤].

أسهبت المصادر كذلك في عرض العوامل البشرية، في مقدمتها كثرة الحروب وحصار المدن والثورات المتتابعة، والانتفاضات وحركات التمرد والفتن بين القبائل، لقد أشَّرت هذه الأوضاع لحالة اقتصادية سيئة،كانت آثارها تزداد سوءا في حال الهزيمة،فالطرف المنهزم أو المحَاصَر عادةً ما يدفع التكلفة الباهظة، على الأقل في الجانب الاقتصادي، أخفها ضررا دفع الجزية للقوة أو الدولة

---

١ - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص٤٢١، ٤٢٢.

٢- ابن أبي زرع الفاسي أبو الحسن علي بن عبد الله (ت ٧٤١ ه / ١٣٤٠ م) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار حمير ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط المغرب١٩٧٢م. ص ١١١، ١١٢.

٣ - نفس المصدر، ص ١٠٢.

٤ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠ص ١٠٤.

٥ -نفس المصدر، ج ٨ص٢١٣ و ابن عذارى، المصدر السابق، ج ١ص٢٧٥.

٦ -ابن الأثير، نفس المصدر، ج٨ ص ٢٤٨.

٧ - المراكشي، المصدر السابق، ج١ ص ٢٨٢.

٨ - ابن عذارى، المصدر السابق، الجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، ط ٣، دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٨٣.ج ٤ ص٤٥.

٩ - ابن القطان علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي(٥٦٢- ٦٢٨ه/١١٦٧- ١٢٣٠ م):نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمد علي مكي الطبعة الثانية،دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤١٠ه/١٩٩٠. ص ٢١٧.

١٠ - عبد الملك بن محمد الأنصاري: الذيل والتكملة لكتاب الصلة، تحقيق محمد بن شريفة،(درط) مطبوعات أكادمية المملكة المغربية الرباط ١٩٨٤، قسم ١ ص٥٤٥.

١١- ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٣ ص ١٠١،١٠٥و ابن بشكوال، المصدر السابق، مج١ ص ٥٠.

١٢ - الضبي أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، (ت ٥٩٩ ه/ ١٢٠٣م): بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، ط ١، دار الكتاب المصرية القاهرة،دار الكتاب اللبناني بيروت، ١٤١٠ه/١٩٨٩. ج ٢ ص ٥١٧.

١٣ - ابن الأثير، المصدر السابق ج٨ص٤٦٢.

١٤ - ابن القطان، المصدر السابق، ص ٢٢٨ فما بعدها وابن الأثير ج٨ص٩٠.

المنتصرة، وأسوؤها دمار واستنزاف الموارد البشرية والمادية للدولة والمجتمع. لقد أدرك القاضي عيَاض (ت٥٤٤هـ/١١٤٩م) هذا الواقع فعدَّ ما تخلفه الحروبَ من الجوائحِ المستأصلة، مخالفا كثيرا من الفقهاء المالكية[١] الذين وظفوا كلمات الجائحة والآفة والعاهة لتعيين ما يصيب مختلف أنواع الملكيات كالعقار والمال وما يلحق النبات أو الحيوان، لأغراض أهمها إثبات أو إسقاط التعويضات، وتحديد حقوق الشركاء، ومختلف أنواع عقود الصفقات التجارية، وعقود الكراء، وتحديد نصاب الزكاة ومن تجب في حقه[٢].

اتجه الباحث المؤرخ حسين بولقطيب نفس الاتجاه فالحرب تُعَدُ من منظور المؤرخ الباحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، من أخطر الجوائح التي أصابت الاقتصاد والمجتمع في الغرب الاسلامي[٣].

لقد أسهبت المصادر التاريخية في سرد تداعيات الحروب على الاقتصاد والمجتمع والوضع السياسي، فيعرض لنا المؤرخ ابن عذارى مثلا صورة عن الآثار المدمرة للحروب التي خاضتها دولة بني عباد في إشبيلية على جيرانها. لقد عانت قرطبة في عهد بني جهور من غلاء السعر سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م[٤]، وذهبت الأموال في دولة بني خزرون بأركش جنوب اشبيلية[٥]، وعانت إمارة بني الأفطس في غرب الأندلس من المجاعة عام ٤٤٢هـ/١٠٤٩م[٦]، وتعرضت إمارة بني مزين في شلب بين ٤٤٠و٤٤٥هـ/١٠٤٧-١٠٥٢م إلى قطع المرافق حتى سقطت سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م[٧]. وفسدت البلاد بإمارة أونبة وشلطيش في وادي ولبة بعدما كانت أيامها استقرارا ورخاءً، واضطرت في الأخير إلى التسليم للمعتضد بن عباد سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م[٨]. وبعد الرخاء في إمارة لُبَّة شرق إشبيلية منذ نشأتها عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م تدهور الحال بضياع الأموال والنفوس وتخريب القرى وإحراق الزروع والمنازل، فصار الأمر فيها إلى الضعف. يقول ابن عذارى ((و كان المعتضد يغير على بسائط لبة فيقتل ويسبي ويهدم ويحرق وكان ناصر الدولة يغير على شرق إشبيلية فيقتل ويفتك وينهب ويسبي إلى أن ضاقت الحال بصاحب لبة...))[٩]. هذه بعض الأمثلة عن التداعيات السلبية للحروب والفتن على اقتصاد في عهد إمارات الطوائف خاصة، ودول العصر الوسيط عامة.

قلَّ في المصادر عرض الأسباب الاقتصادية المحضة مع وجود بعض الاستثناءات. لقد فصَّل ابن خلدون في مقدمته وضعيات تراجع كميات المواد المخزنة بسبب ضعف الإنتاج لسنين[١٠]. واستحداث الحكام التجارة والفلاحة لأنفسهم. وعدَّ ابن خلدون ذلك مفسدةً للاقتصاد لأنه يضايق الفلاحين والتجار ويقضي على مبدأ المنافسة وسيطرة رأس المال الضخم للسلطان. يحتكر الحاكم في مثل هذه الوضعيات النشاط التجاري فيشتري السلع بأبخس الأثمان وبالمقابل يبيع بأغلى الأثمان، يؤدي هذا العمل إلى قلة إقبال المستهلك على البضائع بسبب الغلاء فيحدث الكساد في السوق، ويؤدي ذلك إلى تراجع الأسعار أوانهيارها. ومع فساد الأرباح يتوقف الفلاحون والتجار عن العمل ويقعدون عن استثمار أموالهم مما يؤدي إلى فساد الجباية[١١].

---

١ - عند البرزلي نقلا عن القاضي عيَّاض ((معنى الجائحة هي المصيبة المستأصلة يقال أجاحهم العدو واستولى عليهم وكذا الشدائد)). البرزلي أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي (ت٨٤١ه/ ١٤٣٨م) جامع مسائل الأحكام بما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق د محمد لحبيب الهيلة، ط ١، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ٢٠٠٢. ج٣ ص ٣٨٨.

٢ - ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (المتوفى: ٥٩٥هـ/١١٩٨م): بداية المجتهد ونهاية المقتصد،(درط)، دار الحديث القاهرة١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤ م،

٣ - حسين بولقطيب: جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ط ١، منشورات الزمن، الدار البيضاء المملكة المغربية ٢٠٠٢. ص ١٠٣.

٤ - إبن عذاري، المصدر السابق ج ٣ ص٢٠١، ٢٠٢.

٥- نفس المصدر، ج ٣ ص ٢٩٤.

٦ - نفس المصدر، ج٣ص٢١١ .

٧- نفس المصدر، ج ٣ ص ٢٩٧ ٢٩٨.

٨- نفس المصدر، ج٣ ص ٢٩٩.

٩- نفس المصدر، ج ٣ ص ٣٠١،٣٠٠.

١٠ - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي(٧٣٢-٨٠٨ه/١٣٣٢- ١٤٠٦م): ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحاتة وسهيل زكار، دار الفكر بيروت لبنان، ١٤٢١ه/٢٠٠٠م. ج ١، ص ٣٧٥.

١١ - نفس المصدر ، ج١ ص٣٤٨،٣٤٧.

يسهب ابن خلدون في شرح ظاهرة فوضى الضرائب التي تُفرَضُ على الرعية. فأمام الحاجيات المشروعة للدولة كتقوية الجيش وبناء بعض المرافق العامة، وغير المشروعة كنفقات مرحلة الترف التي تستفحل في آخر الدولة، يسرف الحاكم في ابتداع مسمياتها، ويتخذ كل الوسائل لجمع المال،تارة بمقاسمة العمال والجباة أموالهم ومصادرة ما قد حصلوا عليه من طائل أموال الجباية[١].

أرخ ابن عذارى لبعض الأسباب الاقتصادية الواضحة، فأخبرنا عن بداية خراب القيروان وتراجع تجارتها سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م بعدما قام أمير بني زيري المعز بن باديس بتهجير التجار إلى المنصورية قرب المهدية[٢]. كما سجل حدوث أزمة نقدية بافريقية أدت إلى غلاء الأسعار وعموم الفقر حين أقدم على إلغاء العملة الفاطمية وتعوضها بعملة زيرية سنة٤٤١هـ/١٠٤٩م[٣]. وكان الدينار الفاطمي آن ذاك يصرف بأربعة دنانير ودرهمين. بينما صُرِّف الدينار الجديد بخمسة وثلاثين درهما[٤].

٣. التعبير عن حدوث الشدة الاقتصادية بذكر آثارها.

عبَّر أصحاب المصادر عن الاختلال الاقتصادي بذكر الآثار المترتبة عنه كحدوث المجاعة والوباء وفناء النَّاس. تُقرَنُ الآثار أحيانا ببعض أسبابها أو مظاهرها. فعن غزو الأمير الموحدي يوسف بن عبد المؤمن للمالك النصرانية شمال شرق الأندلس سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م أخبر ابن صاحب الصلاة بوقوع مجاعة شديدة واكبها الغلاء المفرط[٥]. وسجل ابن الأثير غلاء السعر وفناء الأقوات والمجاعة[٦]، كما ربط أصحاب المصادر بين الموت الكثير والغلاء[٧]، وبين الوباء والغلاء[٨]، والجوع وانعدام الأقوات والغلاء المفرط[٩].

من الأمثلة التاريخية ما ذكره ابن عذارى عن سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م، فيها غلت الأسعار في أفريقية رافقها مجاعة شديدة[١٠]. كما أخبرنا أن السعر ارتفع والمجاعة عظمت والأقوات عدمت بأشبيلية وسبتة لما حاصرهما الموحدون منذ سنة ٥٤٢ إلى ٥٤٤هـ/١١٤٧-١١٤٩[١١]. وأما ابن أبي زرع فأورد أن بلاد المغرب خلت من السكان وكَثُرَ فيها الجوع والوباء والغلاء سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م[١٢]. وأرجع صاحب الحلل الموشية غلاء الأسعار وعموم الجدب بالمغرب إلى الفتنة يقصد الحرب بين الموحدين والمرابطين في أواخر حكم الأمير علي بن يوسف، يقول في ذلك ((اتصلت الحروب وغلت الأسعار وتوالت الفتن وعمَّ الجدب وقلت المجابي في العدوتين))[١٣]. وربط ابن الأثير بين الغلاء كمظهر للأزمات الاقتصادية وإحدى تأثيراتها المأساوية كالموت الكثير في إفريقية سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م[١٤].

مما وُظف للتعبير عن التراجع الاقتصادي الاجتماعي عبارات عامة كتَغَيُرِ النعمة، قال الإدريسي عن مدينة أغمات وريكة غرب مراكش في عهد الموحدين ((... وأما الآن في وقت تأليفنا هذا الكتاب فقد أتي على أكثر أموالهم وغيَّرت المصامدة ما كان بأيديهم من نعم الله ولكنهم مع هذا أملياء مياسير))[١٥]. وعبَّر عن تراجع النشاط التجاري بمرفأ المهدية بإفريقية بعد فترة سبقت ميَّزها

١ - نفس المصدر، ج١ ص ٢٨١.
٢- ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص ٢٦١.
٣ - نفس المصدر ج ١ص ٢٧٨، ٢٧٩.
٤ - نفس المصدر ج ١ص ٢٧٩.
٥ ابن صاحب ابن الصلاة عبد الملك (ت ٥٩٤ه/١١٩٨م): المن بالإمامة، تحقيق د عبد الهادي التازي، ط ٣، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ١٩٨٧. ص٣٧٨ فما بعدها.
٦ - ابن الأثير المصدر السابق، ج ٨ ص٢١٣
٧ - نفس المصدر، ج ٩ ص٣٢٥
٨- ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص٣٠٧.
٩ - ابن أبي زرع الفاسي أبو الحسن علي بن عبد الله (ت ٧٤١ ه / ١٣٤٠ م) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار حمير ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط المغرب١٩٧٢م. ص ١١٤،١١٣،١١٢.
١٠- ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص ٣٠٢.
١١ - نفس المصدر،ج٥ ص٣٨.
١٢- ابن أبي زرع نفس المصدر، ص ٢٧٦.
١٣ - مؤلف مجهول: الحلل الموشية في الأخبار ة الحلل الموشية فيذكر الأخبار ة، تحقيق د. سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط١، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء المملكة المغربية،١٣٩٩ه/١٩٧٩. ص ١٢٠،١١٩.
١٤ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٩ ص ٣٢٥.
١٥ - الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الادريسي الحسني الطالبي (٤٩٣-٥٦٠ ه/١١٠٠-١١٦٥م): المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،ط١، مطبعة بريل ليدن هولندا سنة ١٨٦٣.ص ٦٧.

كثافة النشاط التجاري وضخامة المبادلات فيه بقوله ((... وإليها تجلب البضائع الكثيرة بقناطير الأموال على مر الأيام وقد قل ذلك في وقتنا))[١]. ويصف لنا أوضاع بونة بعد أن احتلها النورمان سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م بالضعف وقلة العمارة[٢]، وحال صبرة بإفريقية الذي صار إلى الخراب بعد ما كانت دار ملك وعمارة، قال في ذلك ((وصبرة الآن في وقتنا هذا خراب ليس بها ساكن))[٣].

و توسع ابن عذارى في وصف بعض الشدائد والمآسي الاجتماعية، التي حلَّت بأهل أفريقية سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م، قال ((كانت بأفريقية شدة عظيمة أنكشف فيها الستور، وهلك فيها الفقير، وذهب مال الغنى، وغلت الأسعار، وعدمت الأقوات. وجلى أهلها البادية عن أوطانهم وخلت أكثر المنازل فلم يبقى لها وارث وتبع هذه الشدة وباء الطاعون هلك فيه أكثر الناس من غني ومحتاج...)). استمر ابن عذارى في سرد المأساة حتى حلَّت سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م التي جاء معها الخصب الكثير وانخفاض الأسعار وارتفاع الوباء[٤]. ووصف لنا الإدريسي حال القيروان فقال((... لم يبق منها إلا أطلال دارسة وأثار طامسة، يقل فيها السكان. تجارتها يسيرة ومنافعها نزرة وفيما يذكر أهل النظر أنها عما قريب ستعود إلى ما كانت عليه من العمارة))[٥].

ثالثا – ذكر الاستقرار الاقتصادي في المصادر

سجل أصحاب مصادر التاريخ الإسلامي وضعيات الاستقرار الاقتصادي بذكر عناصره التي سبق ذكرها من قبل، وهي المظاهر والأسباب والنتائج.

١. التعبير عن الاستقرار الاقتصادي بذكر مظاهره._

وظف أصحاب المصادر لتشخيص حالات استقرار وازدهار الحياة الاقتصادية، كلمات وعبارات متنوعة، أكثرها وضوحا الرخاء. من الأمثلة على ذلك ما ورد عند ابن عذارى عن دولة المستظهر بن برزال في قرمونة قبل أن تختل أمور المملكة لما غزاه المعتضد بن عباد فيقول: ((...فتم له الأمر وتمهدت الأمور ورخت الأسعار وبايعت له البلاد التي بايعت أباه...))[٦]. وقال ابن صاحب الصلاة بعد هدوء الثورة على الموحدين ببعض مناطق شمال المغرب مطلع سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م ((... هدأت الفتن في العدوة وصلحت البلدان وارتفعت الحروب رخصت الأسعار))[٧].

دعمت المصادر أحيانا وصفها للرخاء بتسجيل أسعار بعض المواد، خاصة، المواد الغذائية الأساسية، القمح والحنطة والشعير. ومواد أخرى كالخبز والزيتون وزيت الزيتون وبعض المنسوجات. فعن أسعار القمح مثلا يذكر المؤرخ ابن أبي زرع أنه منذ تأسيس دولة المرابطيين إلى بداية ثورة ابن تومرت ما بين ٤٥٣– ٥١٦هـ/١١٤٨–١١٢٢م بلغ سعر أربعة أوسق[٨] من القمح نصف المثقال. وعن انخفاض الأسعار من بجاية إلى بلاد السودان في نفس الفترة، يخبرنا أن القطاني كانت لا تُباع ولا تُشترى في بلاد المغرب ما يفيد أنها كانت تُوزع مجانا[٩]. وذكر ابن صاحب الصلاة أن الشعير بيع ٢٥ مدا[١٠] بدرهم عند خروج الخليفة الموحدي النَّاصِر للأندلس سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠، وهي حالة رخاء[١١]. أما الحنطة فنقل البكري أن أسعارها كانت في منتهى الرخاء في إفريقية منتصف القرن ٥ هـ/ ١١م، فبمدينة بجايةِ بيعَ وِقْر بَعيرٍ[١٢] بدرهمين[١].

١- نفس المصدر، ص ١٠٨.
٢ - نفس المصدر، ص ١١٦، ١١٧.
٣ - نفس المصدر، ص ١١١.
٤ - ابن عذارى، المصدر السابق، ج ١ ص٢٥٧،٢٥٦.
٥ - الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.
٦- ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٣ ص ٣١٢.
٧ - ابن صاحب ابن الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٩٠.
٨ - الْوَسْقُ وِقْرُ بَعِيرٍ وَهُوَ سِتُّونَ صَاعًا (56١٣٠. كلغ). النسفي نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد(ت ٥٣٧ه/١١٤٢م): طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية،تحقيق خالد عبد الرحمن العك، ط ١، دار النفائس بيروت لبنان ١٤١٦ه/١٩٩٥م، ص ٩٦ ومجلة البحوث الإسلامية، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية.، ج ٥٩ ص ١٧٠ فما بعدها والزحيلي، المرجع السابق، ج ١ ص ٧٦.
٩ - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ١٦٧.
١٠- المد١رطل و٣/١ الرطل٦٧٥غ أو ٦٣٤غ وهبة الزحيلي المرجع السابق ج ١ ص ٧٥.
١١- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٥٢، ٣٥٣.
١٢ - وِقْرُ بَعِيرٍ =٦٠صاعا =١٣٠,٥٦ كلغ مجلة البحوث الإسلامية ج ٥٩ ص ١٧٠ فما بعدها ووهبة الزحيلي في كتاب الإفقه الإسلامي وأدلته ج ١ ص٧٦.

سجلت المصادر بعض أسعار المواد المصنعة في حالات الرخاء كالسكر زمن البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) حيث بلغ سعر السكر بإجلي في السوس الأقصى القنطار[٢] بمثقالين وأقل[٣]، والشعير ٢٥ مدا[٤] بدرهم واللحم ستون أوقية بدرهم سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٥].

يؤشر غلاء أسعار العقار وارتفاع أثمان كرائها إلى ازدهار النشاط الاقتصادي والتجاري خاصة. فلما عمَّ الاستقرار في قرطبة أيام ابن جهور ارتفعت أثمان الدور بها، بإقبال النَّاس على سكنى المدينة[٦]. وشهدت المنصورة بين ٤٠٥-٤٠٦هـ/١٠١٦-١٠١٨م غلاء العقار بعد تهجير شرف الدولة المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤/ ١٠١٥هـ /١٠٦٢م) لتجار القيروان نحوها، حيث بلغ كراء حانوت لبيع الكتان مائتي درهم[٧]. أما عند انخفاض أسعارها فذلك دليل على الركود الاقتصادي[٨]. ونفس الظاهرة تنطبق على الفنادق فيكثر رُوادها،خاصة من التجار في فترات الرخاء ويَقِلُّونَ بحلول الأزمات[٩].

تبقى الأسعار تتأثر بعامل جوهري هو قيمة النقود المتداولة فارتفاع قيمها يؤشر عادة للرخاء وانخفاضها للتدهور. من الأمثلة على ذلك استشهد ابن عذارى لإظهار استتباب أوضاع الاقتصادية في بعض فترات عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور بإصداره دينارا جديدا سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م. قال ابن عذارى في ذلك: ((ولم تزل همة المنصور بتتبع جزئيات المملكة بالتفخيم، ويجيل النظر فيما بقي منها للتكميل والتتميم، فرأى أن الدينار القديم يصغر عن مرأى ما ظهر بالمملكة من المنازع العالية، وأن جرمه يقل عما عارضه من المناظر الفخمة الجارية، فعظم جرمه ورفع قدره بالتضعيف وسومه))[١٠].

جمعت كتب الجغرافيا والرحلة معلومات تصف حال الاستقرار الاقتصادي في بعض المدن. فلاحظ أصحابها إقبال التجار على الأسواق، ووفرة الأرباح في مختلف المعاملات، قال ابن حوقل عن مدينة بونة ((...الأسواق حسنة والتجارة مقصودة والأرباح الموجودة...))[١١]. وذكر الإدريسي أن تجارة القيروان كانت رابحة وسلعها نافقة وجبايتها مرتفعة قبل منتصف القرن الخامس الهجري[١٢]، وكانت مدينة المهدية تعرف إقبالا كثيفا للتجار، تجلب إليها البضائع والأمتعة من سائر الأقطار ويُتَجَهَّزُ بتجارتها إلى جميع الأفاق[١٣]، ومدينة سلا مزدهرة الأسواق ومتسعة الأموال[١٤]. ومدينة وهران كثيرة الصنائع والتجارات[١٥]، وتلمسان رائجة تجارتها[١٦].

٢. التعبير عن الاستقرار الاقتصادي بذكر أسبابه الطبيعية والبشرية.

عادة ما يكون حلول الخصب بعد الجفاف إيذانا بعودة الرخاء والاستقرار الاقتصادي، جاء عند المؤرخ ابن الأثير ذكر الغلاء الشديد بإفريقية سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م، الذي بقي إلى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٣م، ثم عبَّر عن عودة الرخاء بقوله ((...وصلُحَتْ أَحوال أَهلها، وأَخصبتِ البلاد، ورخُصَتِ الأَسعارُ وكثَر أَهلها الزَّرعَ))[١٧].

---

١ - البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت ٤٨٧ه/ ١٠٩٤م): المسالك والممالك، ط ١، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة مصر(د ت ط). ج ٢ ص٧١٩.

٢ - القنطار عند وهبة الزحيلي ١٠٠رطل شامي والرطل الشامي ٢,٥٦٤كلغ أي٢٥٦,٤ كلغ. هبة الزحيلي المصدر السابق، ج١ص ٧٧.

٣ - البكري المصدر السابق، ج ٢ص ٨٥٤.

٤ - المد١رطل و٣/١ الرطل= ٦٧٥غ أو ٦٣٤غ وهبة الزحيلي، المرجع السابق،ج ١ ص٧٥.

٥ - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٥٢، ٣٥٣.

٦ - الشنتريني أبو الحسن علي بن بسام (ت ٥٤٢هـ /١١٤٧م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الثقافة للطباعة والنشر والثقافة والتوزيع بيروت لبنتن ١٤١٧هـ/١٩٩٧، قسم ١ مج ٢ ص ٦٠٤ و ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (٥٨٥ - ٦٥٨ه/ ١١٩٩- ١٢٦٠م): الحلة السيراء، تحقيق حسن مؤنس، ط ٢، دار المعارف القاهرة ١٩٨٥. ج ٢ ص٣١، ٣٢.

٧ - ابن عذاري، المصدر السابق،ج١ ص ٢٦١.

٨ - ابن رشد الجد: (٤٥٠ – ٥٢٠ه / ١٠٥٨ – ١١٢٦ م) محمد بن أحمد ابن رشد، أبو الوليد:مسائل ابن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، ط ٢،دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة المغرب،١٤١٤ه/١٩٩٣. مج ١ص ٢٦١.

٩ - البرزلي،المصدر السابق، ج٣ ص، ٦١٧.

١٠ - ابن عذارى، المصدر السابق،ج ٥ ص ١٨٢.

١١- ابن حوقل محمد بن علي البغدادي الموصلي (ت بعد ٣٦٧ ه / ٩٧٧ م):صورة الأرض، ط١، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ١٩٩٢.ص ٧٧.

١٢ - الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.

١٣ - نفس المصدر، ١٠٨.

١٤ - نفس المصدر، ص ٧٣.

١٥- نفس المصدر،ص ٨٤.

١٦ - نفس المصدر، ص ٨٠.

١٧ - ابن الأثير، المصدر السابق ج٨ص٤٦٢

تسترجع البلدان عافيتها الاقتصادية ويعود والأمن الاجتماعي بعدما تنتهي الحروب أو الثوارت أو الفتن الداخلية. فبعد إخماد الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي ثورة قبائل غمارة شمال المغرب سنة ٥٦١هـ/١١٦٤م[١] قال ابن عذارى ((...هدأت الفتن في المغرب وارتفعت الحروب ورخصت الأسعار ودانت الأوطار))[٢].

أشاد المؤرخون بخصال الحكام في تسيير بلدانهم، ونسبوا عموم الرخاء والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي إلى حسن تدبيرهم. كقول ابن عذارى عن محمد بن خزرون بن عبدون الخرزي (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) أنه كان (ضابطا لإمارته بآركش جنوب إشبيلية مثمرا لأموالها[٣]. وعبَّر عن نجاح محمد بن عبد الله بن برزال في إدارة شؤون إمارته بإقبال النَّاس على تعمير المدينة وضواحيها. قال ((... فسارت إليه النفوس وعمرت قرمونة وجهاتها))[٤]. ومما جاء عرضه عن أيام إمارة عزِّ الدولة عبد العزيز البكري في أونبة وشلطيش قبل أن يضايقه المعتضد بن عباد أنها كانت أعيادا من رخاء السعر وأمن السبيل[٥]. وأرجع أسباب كثرة إقبال النَّاس من إشبيلية وإستجة على حصن مُورور جنوب الأندلس إلى حسن تدبير عماد الدولة مناد بن محمد بن نوح الدمري[٦]. وعن استتباب الأوضاع الأمنية والاقتصادية في عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٤هـ/١١٨٤-١١٩٧م). قال ابن أبي زرع بشيء من المبالغة ((فكانت الظعينة (المرأة التي تجلس في الهودج مسافرة) تخرج من بلاد نول لمطة حتى تصل بَرْقَةَ وحدها لا ترى من يعارضها ولا يكلمها)). ثم يحصي ما كان يجريه على أهل المارستان والجذامى والعميان في جميع عمله. وبناء الصوامع والقناطير والجباب للماء، والمنازل. قال ابن عذارى ((فكانت أيامه زينة للدهر وشرفا لأهل الإسلام))[٧].

٣. التعبير عن الاستقرار الاقتصادي بذكر آثارها الاجابية.

مما يوحي باستقرار الأوضاع الاقتصادية تحسن ظرف المعيشة وعموم الرفاهية. فوصف الإدريسي سكان مدينة ألمرية باليسر والثراء وسعة الأحوال فيقول: ((ومدينة المرية كانت في أيام الملثم... أهلها مياسير ولم يكن في بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقداً ولا أوسع منهم أحوالاً))[٨]. واستعمل نفس الأوصاف عن سكان مدينة قسنطينة، فأهلها كانوا مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة[٩]. وبمسحة أدبية استعرض ابن عذارى الوضع الاقتصادي بمدينة بجاية قبل نزول بني غانية بها سنة ٥٨١هـ/١١٨٥ م بقوله ((...وظل الهدنة في تلك البلاد ممدود، وماء العافية بها مسكوب وموروود، والعيش كالأحلام والدنيا تحية وسلام.))[١٠].

كان إقبال بعض أهل الأندلس على المنتجعات بعائلاتهم والتوسيع في الإنفاق على المطاعم والمشارب وكراء المساكن الراقية فيها من مظاهر اليسر وسعة الرزق عند المقبلين عليها. زيادة على ذلك كانت تؤشر إلى حالة من الهدوء والاستقرار. يقول الإدريسي عن سعر الكراء بهذه المحطات((وربما بلغ المسكن بها في الشهر ثلاثة دنانير مرابطية وأكثر))[١١]. وكانت سوسة في وصف ابن حوقل طيبة الفنادق والحمامات حسنة الأسواق[١٢].

تنمو حركة العمران ببناء مختلف المرافق العمومية لمواكبة تزايد السكان وإقبال الزوار لقضاء مختلف أغراضهم الاقتصادية الاجتماعية الثقافية والعلمية. ذكر الحميري قي هذا السياق تنافس النَّاس في البنيان بمدينة مراكش زمن المرابطين والموحدين

١ - ذكر ابن الأثير ثورة قبائل غمارة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م. قضى عليها الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي عام ٥٦١هـ/١١٦٦م. نفس المصدر،ج٩ ص٤٧٥.
٢ - ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٥ ص١٠٤.
٣ - نفس المصدر، ج ٣ ص ٢٩٤.
٤ - نفس المصدر، ج ٣ ص ٣١٢،٣١١.
٥ - نفس المصدر ج٣ " ص ٢٩٩.
٦ - نفس المصدر، ج ٣ ص ٢٩٦.
٧ - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ٢١٧، ٢١٨.
٨ - الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٧.
٩ - نفس المصدر، ٩٥.
١٠- ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٥ ص ١٧٥.
١١ - الإدريسي، المصدر السابق، ص ٢٠٠.
١٢- ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٧٢، ٧٣.

فقال:((وعظمت مراكش في الدولتين، فكانت أكبر مدن المغرب الأقصى، وعظمت تجارتها وتنافس الناس في البناء فيها))[١]. ويصل مستوى الرفاه الاجتماعي في المدن إلى تشييد القصور الفخمة وتخطيط الأزقة الواسعة والرحاب الفسيحة[٢].

النتائج

تبيَّن في الأخير أنه رغم تأخر انبثاق علم الاقتصاد عن الفترة قيد الدراسة، إلا أن المصادر سجلت تاريخا اقتصاديا للمجتمعات الإنسانية بمختلف تنظيماتها بما في ذلك ما تعلق بظاهرتي الاستقرار والتوتر الاقتصادي.

اتضح أن كلمة الأزمة رغم وجودها في لغة العرب إلا أنها غابت عن الاستعمال في المصادر واستعملت مكانها كلمات أخرى تدل في معانيها على التوتر الاقتصادي.

اتضح أن كذلك أن المصادر أشارت إلى التدهور الاقتصادي من خلال ذكر أحد عناصره أو بعضها مجتمعة.فعبَّرت عنه بذكر بعض المظاهر كالغلاء،أو بعض الأسباب كالجفاف والفيضان وغزو الجراد الحروب،أو بعض الانعكاسات كحدوث المجاعة والوباء وفناء النَّاس.

كما أشارت إلى الاستقرار الاقتصادي بذكر أحد عناصره أو بعضها مجتمعة. فعرفته ببعض مظاهره مثل الرخاء، أو بعض أسبابه كحلول الخصب وتوقف الحروب، أو بعض نتائجه كحياة الرفاهية وعموم الاستقرار الاجتماعي والسياسي.

المصادر والمراجع.

١. ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م): الحلة السيراء، تحقيق حسن مؤنس، ط ٢، دار المعارف القاهرة ١٩٨٥،عدد الأجزاء ٢.

٢. ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ عدد الأجزاء ١١.

٣. ابن أبي زرع الفاسي أبو الحسن علي بن عبد الله (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار حمير ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط المغرب١٩٧٢م.

٤. ابن بشكوال بن عبد الملك بن مسعود (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م): الصلة(معه كتاب صلة الصلة لابن الزبير مج٣،تحقيق الشريف أبو العلاء العدوي،ط١، مكتبة الثقافة الدينية،١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨. عدد مجلدات ٣.

٥. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (٧٣٢-٨٠٨ هـ/١٣٣٢- ١٤٠٦م): ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحاتة وسهيل زكار، دار الفكر بيروت لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، عدد الأجزاء ٨.

٦. ابن رشد (٤٥٠- ٥٢٠هـ / ١٠٥٨- ١١٢٦ م) محمد بن أحمد ابن رشد،:مسائل ابن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، ط ٢،دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة المغرب،١٤١٤هـ/١٩٩٣، عدد الأجزاء٢.

٧. ابن رشد الحفيد محمد بن أحمد القرطبي (ت٥٩٥هـ١١٩٨م):بداية المجتهد ونهاية المقتصد، شرح وتحقيق محمد العبادي،ط١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة القاهرة مصر ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م، عدد المجلدات ٤.

١- الحميري محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم أبو عبد الله (ت ٩٠٠ ه/ ١٤٩٥ م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت لبنان ١٩٨٤. ص ٥٤١.

٢- تزدهر المدن في فترات الاستقرار السياسى والاقتصادي، حتى في ظروف الأزمة تبقى المعالم العمرانية شاهدة على فترات سابقة من الرقي واستقرار. الإدريسي، المصدر السابق، ص ٦٨.

٨. ابن صاحب ابن الصلاة عبد الملك (ت ٥٩٤هـ/١١٩٨م): المن بالإمامة تحقيق د عبد الهادي التازي ط ٣، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ١٩٨٧.

٩. الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي (٤٩٣-٥٦٠ هـ/١١٠٠-١١٦٥م): المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة في اختراق الآفاق،ط١، مطبعة بريل ليدن هولندا سنة ١٨٦٣.

١٠. الحاكم النيسبوي الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه (٣٢١- ٤٠٥ هـ / ٩٣٣- ١٠١٤ م): المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتاب العلمية بيروت لبنان ١٤١١هـ / ١٩٩٠ م، ٤ أجزاء.

١١. الحميري محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم أبو عبد الله (ت ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٥ م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت لبنان ١٩٨٤.

١٢. ابن حوقل محمد بن علي البغدادي الموصلي (ت بعد ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م):صورة الأرض، ط١، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ١٩٩٢.

١٣. الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر(ت بعد ٦٦٦هـ/ ٩٣٠م): مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، ط ٥،المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا لبنان، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

١٤. الزَّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (١١٤٥- ١٢٠٥ هـ/ ١٧٣٢- ١٧٩٠ م): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين،ط١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب دولة الكويت ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. عدد الأجزاء ٤٠.

١٥. الشنتريني أبو الحسن علي بن بسام (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الثقافة للطباعة والنشر والثقافة والتوزيع بيروت لبنتن ١٤١٧هـ/١٩٩٧، ٤ أقسام.

١٦. ابن عذارى محمد (أو أحمد بن محمد)،أبو عبد الله، (ت نحو ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م):البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين، تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال، ط ٣، دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٨٣، عدد الجزء ١، ٢، ٣.

١٧. == الجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، ط ٣، دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٨٣.

١٨. == الجزء الخامس قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة، الطبعة ١، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ودار الثقافة الدار البيضاء المملكة المغربية،، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

١٩. مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي (٩٣ – ١٧٩هـ/٧١٢- ٧٩٥م): موطأ الإمام مالك، تحقيق، تقي الدين الندوي الطبعة: الأولى دار القلم دمشق ١٤١٣ هـ/ ١٩٩١. عدد الأجزاء ٣.

٢٠. المراكشي عبد الواحد بن علي التميمي (٥٨١ -٦٤٧ هـ/١١٨٥ – ١٢٥٠م):المعجب في تلخيص أخبار المغرب، محمد زينهم ومحمد عجب، ط١، دار الفرجاني للنشر والتوزيع القاهرة مصر ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢١. مؤلف مجهول: الحلل الموشية في الأخبار ة الحلل الموشية فيذكر الأخبار ة،تحقيق د.سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط١، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء المملكة المغربية،١٣٩٩هـ/١٩٧٩

٢٢. ابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي المصري(٦٣٠ – ٧١١ هـ / ١٢٣٢ – ١٣١١ م): لسان العرب، ط ١، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف القاهرة،١٩٧٩. عدد الأجزاء ١٥.

٢٣. النسائي أحمد بن علي بن شعيب أبو عبد الرحمن (٢١٥ – ٣٠٣ هـ / ٨٣٠ – ٩١٥ م): المجتبى من السنن، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط ٢، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب الجمهورية العربية السورية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م،عدد الأجزاء ٩.

٢٤. النسفي نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد(ت ٥٣٧هـ/١١٤٢م): طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، تحقيق خالد عبد الرحمن العك، ط ١، دار النفائس بيروت لبنان ١٤١٦هـ/١٩٩٥م

المراجع

١. بوتشيش إبراهيم القادري: إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي،ط١، دار الطليعة، بيروت لبنان ٢٠٠٢م.

٢. بولقطيب حسين: جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ط ١، منشورات الزمن، الدار البيضاء المملكة المغربية ٢٠٠٢.

٣. الزحيلي وهبة: الفقه الإسلامي وأدلته الشامل للأدلّة الشرعية والآراء المذهبية وأهم النَّظريات الفقهيَّة وتحقيق الأحاديث النبويَّة وتخريجها، ط٢، دار الفكر دمشق سوريَّة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. عدد الأجزاء: ٨.

المجلات

١. مجلة البحوث الإسلامية، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية، عدد الأجزاء: ٩٥، من ذي القعدة إلى صفر ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. عدد الأجزاء٩٥.